الرسالة الوعظية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الرسالة

لقد بلغنى عن لسان من أثق به سيرة الشيخ الإمام الزاهد -حرس الله توفيقه وسمره فى مهم دينه- ما قوى رغبتى فى مؤاخاته فى الله تعالى رجاء لما وعد الله به عباده المتحابين. وهذه الأخوة لا تستدعى مشاهدة الأشخاص وقرب الأبدان، وإنما تستدعى قرب القلوب وتعارف الأرواح وهى جنود مجندة فإذا تعارفت ائتلفت، وها أنا عاقد معه الأخوة فى الله تعالى ومقترح عليه أن لا يخلينى عن دعوات فى أوقات خلوته، وأن يسأل الله تعالى أن يرينى الحق حقًا، ويرزقنى اتباعه، وأن يرينى الباطل باطلاً، ويرزقنى اجتنابه، ثم قرع سمعى أنه التمس منى كلامًا فى معرض النصح والوعظ. وقولاً وجيزًا فيما يجب على المكلف اعتقاده من قواعد العقائد.

وعظ النفس

أما الوعظ، فلست أرى نفسى أهلاً له لأن الوعظ زكاة نصابها الاتعاظ ومن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة، وفاقد النور كيف يستنير به غيره (ومتى يستقيم الظل والعود أعوج) وقد أوحى الله تعالى إلى عيسى ابن مريم ﷺ: «**عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحى منى**»، وقال نبينا ﷺ: «**تَرَكْتُ فيكُمْ واعظَيْنِ نَاطقٌ وَصَامتٌ**».

فالناطق هو القرآن والصامت هو الموت وفيهما كفاية لكل متعظ ومن لا يتعظ بهما فكيف يعظ غيره، ولقد وعظت بهما نفسى فصدقت وقبلت قولاً وعقلاً، وأبت وتمردت تحقيقًا وفعلاً فقلت لنفسى: أما أنت مصدقة بأن القرآن هو الواعظ الناطق، وأنه الناصح الصادق، فإنه كلام الله المنزل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ فقال: نعم. قال الله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [هود: ١٥، ١٦]. فقد وعدك الله تعالى بالنار على إرادة الدنيا، وكل ما لا يصحبك بعد الموت فهو من الدنيا، فهل تنزهت عن إرادة الدنيا أو حبها، ولو أن طبيبًا نصرانيًا وعدك بالموت أو المرض على تناولك ألذ الشهوات لتحاشيتها واتقيتها. أكان النصرانى عندك أصدق من الله تعالى؟ فإن كان ذلك فما أكفرك. أو كان المرض أشد عندك من النار، فإن كان ذلك فما أجهلك، فصدقت ثم ما انتفعت بل أصررت على الميل إلى

العاجلة واستمررت، ثم أقبلت عليها فوعظتها بالواعظ الصامت فقلت: قد أخبر الناطق عن الصامت إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨]. وقلت لها: هبى أنك ملت إلى العاجلة أفلست مصدقة بأن الموت لا محالة آتيك وقاطع عليك كل ما أنت متمسكة به وسالب منك كل ما أنت راغبة فيه وكل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥، ٢٠٧]. أفأنت مخرجة هذا عن جميع ما أنت فيه؟ والحر الحكيم يخرج من الدنيا قبل أن يخرج منها. واللائم يتمسك بها إلى أن يخرج من الدنيا خائبًا خاسرًا متحسرًا، فقال: صدقت، فكان ذلك منها قولاً لا تحصيل وراءه إذ لم تجتهد قط فى التزود للآخرة كاجتهادها فى تدبير العاجل، ولم تجتهد قط فى رضاء الله تعالى كاجتهادها فى رضاها بل كاجتهادها فى طلب الخلق، ولم تستح قط من الله تعالى كما تستحى من واحد من الخلق، ولم تشمر للاستعداد للآخرة كتشميرها فى الصيف، فإنها لا تطمئن فى أوائل الشتاء ما لم تفرغ من جميع ما تحتاج إليه من آلاته مع أن الموت ربما يختطفها، والشتاء لا يدركها، والآخرة على يقين لايتصور أن يختطف منها، وقلت لها: ألا تستعدين للصيف بقدر طوله وتصنعين آلة الصيف بقدر صبرك على الحر؟ قالت: نعم. قلت: فاعصى الله بقدر صبرك على النار واستعدى للآخرة بقدر بقائك فيها. فقالت: هذا هو الواجب الذى لا يرخص فى تركه إلا الأحمق، ثم استمرت على سجيتها فوجدتنى كما قال بعض الحكماء: إن فى الناس من يموت نصفه ولاينزجر نصفه الآخر، وما أرانى إلا منهم، ولما رأيتها متمادية فى الطغيان غير منتفعة بوعظ الموت والقرآن. رأيت أهم الأمور التفتيش عن سبب تماديها مع اعترافها وتصديقها، فإن ذلك من العجائب العظيمة، فطال عليه تفتيشى حتى وقفت على سببه. وها أنا مؤنس وإياه بالحذر منه. فهو الداء العضال وهو السبب الداعى إلى الغرور والإهمال. وهو اعتقاد تراخى الموت واستبعاد هجومه على القرب. فإنه لو أخبره صادق فى بياض نهاره أنه يموت فى ليلته أويموت إلى أسبوع أو أشهر، لاستقام على الطريق المستقيم. ولترك جميع ما هو فيه مما يظن أنه مما يتعاطاه لله تعالى ومغرور فيه فضلاً عما يعلم أنه ليس لله تعالى، فانكشف تحقيقًا أن من أصبح وهو يأمل أن يمسى أو أمسى وهو يأمل أن يصبح لم يخل من الفتور والتسويف، ولم يقدر إلا على سير ضعيف. فأوصيه ونفسى بما أوصى به رسول الله ﷺ حيث قال: «صَلِّ صَلاةَ مُوَدِّعٍ»، ولقد أُوتى جوامع الكلم وفصل الخطاب. ولا ينتفع بوعظ إلا به، فمن غلب على قلبه فى كل صلاة أنها آخر صلاته، حضر معه قلبه فى الصلاة وتيسر له الاستعداد بعد

الصلاة. ومن عجز عن ذلك فلا يزال فى غفلة دائمة وغرور مستمر، وتسويف متتابع إلى أن يدركه الموت فتدركه حسرة الفوت، وأنا مقترح عليه أن لا يسأل الله تعالى أن يرزقنى هذه الرتبة فإنى طالب لها، وقاصر عنها، وأوصيه أن لا يرضى من نفسه إلا بها، وأن يحذر من مواقع الغرور، فإذا وعدت النفس بذلك طالبها بموثق غليظ من الله تعالى، فإن خداع النفس لا يقف عليه إلا الأكياس.

وأما أقل ما يجب اعتقاده على المكلف فهو ما يترجمه قوله لا إله إلا الله محمد رسول الله. ثم إذا صدق الرسول فينبغى أن يصدقه فى صفات الله تعالى فإنه حى قادر عالم متكلم مريد ليس كمثله شىء وهو السميع البصير وليس عليه بحث عن حقيقة هذه الصفات. وأن الكلام والعلم وغيرهما قديم أو حادث، بل لو لم تخطر له هذه المسألة حتى مات مؤمنًا وليس عليه تعلم الأدلة التى حررها المتكلمون. بل كلما حصل فى قلبه التصديق بالحق. بمجرد الإيمان من غير دليل وبرهان فهو مؤمن، ولم يكلف رسول الله ﷺ أكثر من ذلك. وعلى هذا الاعتقاد المجمل استمرت الأعراب وعوام الخلق إلا من وقع فى بلدة يقرع سمعه فيها هذه المسائل مقدم الكلام وحدوثه ومعنى الاستواء والنزول وغيره فإن لم يأخذ ذلك قلبه وبقى مشغولاً بعبادته وعمله فلا حرج عليه وإن أخذ ذلك بقلبه فأقل الواجبات عليه ما اعتقده السلف فيعتقد فى القرآن القدم، كما قال السلف: القرآن كلام الله غير مخلوق، ويعتقد أن الاستواء حق والسؤال عنه مع الاستغناء بدعة، والكيفية فيه مجهولة. فيؤمن بجميع ما جاء به الشرع إيمانًا مجملاً من غير بحث عن الحقيقة والكيفية، فإن لم ينفعه ذلك وغلب على قلبه الإشكال والشك فإن أمكن إزالة شكه وإشكاله بكلام قريب من الإفهام. وإن لم يكن قويًّا عند المتكلمين ولا مرضيًّا عندهم، فذلك كاف ولا حاجة به إلى تحقيق الدليل، بل الأولى أن يزال إشكاله من غير برهان حقيقة الدليل، فإن الدليل لا يتم إلا بدرك السؤال الجواب عنه، ومهما ذكرت الشبهة فلا يبعد أن ينكر بقلبه ويكل فهمه عن درك جوابه إذ الشبهة قد تكون جلية والجواب دقيقًا لا يحتمله عقله. ولهذا زجر السلف عن البحث والتفتيش عن الكلام. وإنما زجروا عنه لضعفاء العوام.

وأما المشتغلون بدرك الحقائق فلهم خوض غمرة الإشكال ومنع الكلام للعوام يجرى مجرى منع الصبيان من شاطئ نهر دجلة خوفًا من الغرق، ورخصة الأقوياء فيه تضاهى رخصة الماهر فى صنعة السباحة، إلا أن ههنا موضع غرور ومزلة قدم، وهو أن كل ضعيف فى عقله -راض من الله تعالى فى كمال عقله- يظن بنفسه أنه يقدر على إدراك الحقائق كلها وأنه من جملة الأقوياء فربما يخوضون فيغرقون فى بحر الجهات حيث لا يشعرون، فالصواب للخلق كلهم إلا الشاذ النادر الذى لا تسمح الأعصار إلا بواحد منهم

أو اثنين سلوك مسلك السلف فى الإيمان بالرسل والتصديق المجمل بكل ما نزله الله تعالى وأخبر به رسوله من غير بحث وتفتيش عن الأدلة، بل الاشتغال بالتقوى عليه شغل شاغل إذ قال ﷺ حيث رأى أصحابه يخوضون بعد أن غضب حتى احمرت وجنتاه: **«أبهذا أمرتم تضربون كتاب الله بعضه ببعض انظروا ما أمركم الله به فافعلوا وما نهاكم عنه فانتهوا»**. فهذا تنبيه على المنهج الحق، واستيفاء ذلك شرحناه فى كتاب (قواعد العقائد) فيطلب منه والسلام.

إلجام العوام عن علم الكلام

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الرسالة

الحمد لله الذى تجلى لكافة عباده بصفاته وأسمائه وتاهت عقول الطالبين فى بيداء كبريائه، وقص أجنحة الأفكار دون حمى عزته وتعالى بجلاله عن أن تدرك الأفهام كنه حقيقته. واستوفى قلوب أوليائه وخاصته واستغرق أرواحهم حتى احترقوا بنار محبته وبهتوا فى إشراق أنوار عظمته، وخرست ألسنتهم عن الثناء على جمال حضرته إلا بما أسمعهم من أسمائه وصفاته وأنبأهم على لسان رسوله محمد ﷺ خير خليقته وعلى أصحابه وعترته.

أما بعد: فقد سألتنى أرشدك الله عن الأخبار الموهمة للتشبيه عند الرعاع والجهال من الحشوية الضلال حيث اعتقدوا فى الله وصفاته ما يتعالى ويتقدس عنه من الصورة واليد والقدم والنزول والانتقال والجلوس على العرش والاستقرار، وما يجرى مجراه مما أخذوه من ظواهر الأخبار وصورها، وأنهم زعموا أن معتقدهم فيه معتقد السلف، وأردت أن أشرح لك اعتقاد السلف، وأن أبين ما يجب على عموم الخلق أن يعتقدوه فى هذه الأخبار، وأكشف فيه الغطاء عن الحق، وأميز ما يجب البحث عنه عما يجب الإمساك والكف عن الخوض فيه، فأجبتك إلى طلبتك متقربًا إلى الله سبحانه وتعالى بإظهار الحق الصريح من غير مداهنة ومراقبة جانب ومحافظة على تعصب لمذهب دون مذهب، فالحق أولى بالمراقبة، والصدق والإنصاف أولى بالمحافظة عليه، وأسأل الله التسديد والتوفيق وهو بإجابة داعية حقيق، وها أنا أرتب الكتاب على ثلاثة أبواب:

باب فى بيان حقيقة مذهب السلف فى هذه الأخبار.

وباب فى البرهان على الحق فيه مذهب السلف وأن من خالفهم فهو مبتدع.

وباب فى فصول متفرقة نافعة فى هذا الفن.